الفصل الثاني عشر

ذات صباح بارد في شباط/فبراير، ناديت: "بسام! تعال نتأرجح!"

ولما يمض على عودتي من كردستان سوى أسبوع واحد، تملكني الإحساس بأني محبوسة مرة أخرى. مُكْرِباً كان ألا يستطيع المرء المشي في الشارع والتحدث مع الناس في الهواء الطلق أو حتى شراء الحوائج الشخصية من البقالية؛ ومع ذلك كنت أحس بأنني أنانية إذا ما شكوت وتذمرت من فقدان التحكم بما أتناوله من طعام، فيما الناس كانوا يتعرضون للنسف ويموتون، فيما العاملون عندنا كانوا خائفين على أرواحهم كل مرة يخرجون فيها من بيوتهم متوجهين إلى العمل، فيما الجنود الأمريكيون وأفراد الشرطة العراقيون كانوا مخيرين بين البقاء في الداخل أو الخروج لمواجهة الخطر. لم تكن مهمتي على المستوى نفسه من الخطر مثل مهمتهم هم. أنا كنت هاربة من المتمردين الذين كانوا هم يطاردونهم. تذكُّري لهذه الحقيقة حماني من الاستغراق في هم خسارتي لأسباب ترف معينة مثل الهواء الطلق. ومع ذلك فإن هذا كان الجزء الأصعب من وجودي في العراق. كنت أكثر نجاحاً من كثيرين نتيجة علاقتي الجيدة مع العاملين في المقام الأول. حين كان التيار ينقطع فننعزل عن باقي العالم، ونبقى عاجزين عن فعل أي شيء سوى انتظار عودته، كنت أبتعد عن رقعة

obeikandl.com

لعبة "المونوبولي"؛ أو أنقض على كرة القدم؛ أو أسحب أحد المترجمين من كمبيوتر الحضن ونذهب إلى الأرجوحة في الباحة الخلفية، حيث كنا، رافعين سيقاننا مثل الأطفال لنرى من يعلو أكثر، ننسى ولو للحظة المكان الذي كنا فيه. كانت السماء زرقاء، الهواء منعش. أخذت نفساً عميقاً وأغمضت عيني، إلى أن مَرَّتْ حوامة محدثة ضجيجاً، نافضة الشبابيك ومذكرة إياي بالمكان الذي كنا فيه. لم يكن غيابنا يطول على الإطلاق. شعرت بنوع من الهشاشة في الهواء الطلق، حيث كان أي قناص قادراً على اقتناصنا من خلف سور الحديقة، غير أنني نجحت ببساطة في أن أتنفس للحظة أو اثنتين.

مع حلول شهر شباط/فبراير كان بسام وعمر يتأهبان للنزول إلى الساحة بوصفهما صحفيين محترفين. لم يعودا مجرد مترجمين، وكانا يدركان ذلك. لقد بدءا يقاومان عنوان المترجم، عادّينه حاطاً من قدرهما لدى تقديمهما في اللقاءات. كان العنوان يشي، بنظرهم، بأنهما ليسا إلا اثنين من ذَكَر النحل يتوليان قلب باقة من الكلمات إلى أخرى. كان عمر يحلم بأن يصبح صحفياً. صارحني مرة قائلاً: "ما يهمني هو المسار المفضي إلى الصحافة، المسار الذي يوصلني إلى المحطة التي أكون فيها صحفياً. إنها قضيتي الوحيدة. إنه الخط الأحمر في حياتي وسوف أظل أدافع عنه بأي وسيلة وكل وسيلة." على الدوام كان عمر الأول في المكتب. لم يسبق له أن طلب زيادة، أو ترفيعاً. تصورته واحداً من ركاب سفينة **التايتانيك** الغارقة، موسيقياً عاكفاً على العزف فيما السفينة منزلقة غوصاً في المياه شديدة البرودة، صامداً خلف آلته فيما الآخرون يتزاحمون لمغادرة السفينة طلباً للنجاة.

لم يكن بسام على المستوى نفسه من اليقين حول ما كان يريد أن يفعله. لم يكن الإعلام في دمه كما هي حال عمر. ففي فترة الإعياء والتعب الشديدين التي أعقبت الانتخاب، قرر بسام ترك **البوست** للانتقال إلى وظيفة ذات ساعات عمل يمكن التنبؤ بها في إحدى وزارات الحكومة. تحدثنا عن قراره على الأرجوحة

وفي المكتب لاحقاً. كنت أعلم أنه كان يشعر بأنه غير مقدر أكثر الأحيان. كان الوضع صعباً بالنسبة إلى الشباب. كانوا قد فقدوا جميع أصدقائهم. كانوا يعملون اثنتي عشرة ساعة في اليوم، ولم يكونوا يعودون إلى بيوتهم إلا وهم مرهقون عاجزون عن ممارسة أي حياة اجتماعية. كذلك لم يكونوا آمنين إذا ما أرادوا التنقل في الشوارع بعد حلول الظلام للقاء أقرانهم على أي حال. قبل غزو الولايات المتحدة، درج الشباب العراقيون على عادة اللقاء في المقاهي، الحدائق العامة، والأندية. هذه الأمكنة إما باتت مغلقة أو مهجورة بعد قيام السماء بسحب ظلالها. كذلك كان عمر وبسام يكلفان بمهمات كثيرة، يحملان في الغالب الجزء الأكبر من الأعباء والمنغصات الناجمة عن الضغوط التي كان المراسلون الأمريكيون يشعرون بها جراء كونهم بعيدين عن وطنهم. كانا يمقتان أن يعاملا بنوع من الفوقية، من عدم الثقة، من عدم أخذ آرائهما بنظر الاعتبار. لم يكن جميع مراسلي **البوست** الذين مروا بالمكتب متمتعين بما يكفي من الحساسية إزاء هذه الأمور. كان أبو سيف أكثر الشاعرين بالاضطهاد والانسحاق، إذ أصبح يركض من مكان إلى آخر لأخذ التصريحات بعد أن كان يجول على العالم بالطائرة. صحيح أنه تبنى عمله الجديد حين شعر بأن يحظى بالتقدير. ولكنه لو طُلب منه أن يجلس خلف طاولته يوماً بعد آخر في حين يجري إرسال الآخر إلى مهمات خارجية لتغطية الأنباء، لسارع إلى الكلام عن الاستقالة والعودة إلى الجو. ما إن تحتل إحدى قصصه مكاناً لها على الصفحة الأولى حتى يعود إلينا عاطفياً لإحساسه بأنه مهم مرة أخرى، ذو جدوى. أما بسام فقد كان حالةً أصعب من أبي سيف لأنه كان في بداية الطريق. جاء إلى الصحافة صدفة، وجراء تعرضه للضغط من أهله المطالبين بأن يترك، مع عدم وجود زوج أو أولاد ملزم بإعالتهم، بدا سهلاً عليه أن يحلم بحياة مختلفة، أن ينطلق من مهنة أسهل، أكثر أمناً.

ذات يوم بالغ القسوة قلت له: "أعلم أنه صعب، يا بسام، إلا أنك مراسل جيد. ما الذي أستطيع أن أفعله لإقناعك بالبقاء؟ مؤكد أنه ما كان أي مكتب بغدادي **للواشنطن بوست** ممكناً بدونك أنت وعمر وأبي سيف. ما كنا استطعنا أن نقوم بعملنا لولاكم. إنها حياتك. عليك أن تتخذ قرارك بشأن ما تريده. ولكن لا تترك لأنك تشعر كما لو كنت لا تحدث فرقاً. إنك تفعل."

حين غادر كارل عائداً إلى تركيا في شباط/فبراير لم يتصل بي أحد من واشنطن لإبلاغي بأنني أصبحت مسؤولة. جرى تكليفي بمهام رئيس مكتب انتقالي دون كتاب رسمي من واشنطن. وقد عنى ذلك تمديد إقامتي مرة أخرى، لسوء حظ الأصدقاء والأهل هناك في الوطن. وحسب افتراضاتهم كان ينبغي أن أكون مجنونة لعدم رغبتي في الرحيل، نظراً لسوء الوضع المفرط في بغداد. فقط أختي بدت متفهمة، أو، أقله، أوحت بأنها مقتنعة حين قالت لي إنها مؤيدة لقراري القاضي بالبقاء. ومع أنني كنت قد قررت ألا ألتمس منصب رئاسة المكتب، فقد كنت راغبة في التأكد من أن المكتب كان محجوزاً للرئيس القادم. بدا الاحتمال الأقوى متمثلاً بأن تكون **البوست** عازمة على استئجار مرشح خارجي لشغل الوظيفة. كنت قد أصبحت عاشقة لهؤلاء العراقيين ـ لالتزامهم **بالبوست**، بالصحافة، بتسجيل تاريخ بلدهم. أردت أن أجعل عملية الانتقال ميسرة قدر الإمكان.

كنت أيضاً متلهفة للإمساك بفرصة قيادة المكتب، لأثبت قدرتي على الاضطلاع بالمهمة. لم يكن قد سبق لي أن توفرت لدي فرصة إدارة جهاز عاملين، فريق عمل، منذ أيام رئاستي لتحرير صحيفتي الطالبية ـ **المصرية اليومية** في جامعة إيلينوي الجنوبية. عشقت رئاسة التحرير، لا السلطة المصاحبة للمنصب بل المسؤولية. ومهما نسيت لن أنسى حدث انتخاب **المصرية اليومية** بوصفها الجريدة الجامعية الأولى في الولاية، متفوقة على منافستها **الإيلينية اليومية**

في جامعة إيلينوي. تسلقت طاولة التحرير وجمعت فريق العمل من حولي، أكثر من خمسين طالباً صحفياً من جميع مستويات الموهبة والالتزام.

أوعزت: "أريدكم أن تزعقوا بأعلى أصواتكم لمدة دقيقة؛ أن تزعقوا لجميع أولئك الذين لم يصدقوا قط أنكم قادرون على الوصول إلى هنا؛ أن تزعقوا كي يتمكنوا من سماع صوتكم حيثما كانوا."طوال دقيقة كاملة. امتلأت غرفة الأخبار بجلبة تلك الصيحات والهتافات. سمعت أصوات أناس كانوا مستعدين لتكريس الأجزاء الباقية من حيواتهم على البحث عن لحظة كهذه مرة أخرى. سمعت أصوات أناس لم يكونوا مؤهلين على الإطلاق للوصول إلى هناك. غير أنهم كانوا قد امتلكوا، ولو للحظة عابرة في حيواتهم، هذه المعرفة بأنهم كانوا في القمة.

صباح اليوم الذي غادر فيه كارل مسلماً إياي السيف ـ سيف حقيقي كان رؤساء المكاتب يسلمونه، سلفاً لخلف، في احتفال مهيب ـ طلبت من أعضاء جهاز العاملين أن يجتمعوا في الفناء الخلفي. ما أكثر ما كانوا قد انتظروا هذا اليوم! متوسلين إلي أن أتقدم بطلب الحلول محل كارل. غير أنني لم أكن قادرة على وعدهم بأي بقاء دائم لي. كان لابد لي من أن أعود إلى الوطن لاحقاً، كما كنت منطفئة تماماً جراء العمل سبعة أيام في الأسبوع، جراء الحصول على عدد قليل من ساعات النوم في الليل، جراء التوجس من التعرض للاختطاف وحز الرقبة. كان بوسعي إعطاءهم بضعة أسابيع، أتولى خلالها مهمة حمل أعباء المكتب على كاهلي إلى نهاية الشهر.

اجتمعوا في الباحة الخلفية، سائقين، حراساً، أمهات، ومترجمين.

أمرت: "تماسكوا بالأيدي! هيا ليبادر كل منكم إلى الإمساك بيد الشخص القريب منه."

انتظرت إلى أن اكتملت عملية التماسك.

"نحن الآن في حلقة، موحدون. لسنا موحدين من أجلي أنا. نحن موحدون من أجلكم أنتم. نحن موحدون لأن **الواشنطن بوست** معتمدة على كل واحد منكم. لن أنجح إلا بفضلكم." رد الجميع بنظرات مفعمة وقاراً. سمعت بضع تمتمات: "نحن وراءك يا رئيسة! إلى الأمام يا زعيمة!" بدوت كما لو كنت واعظاً وهؤلاء جماعة المصلين.

"الآن سنهتف معاً" **الواشنطن بوست!** "اهتفوا بصوت مرتفع": **واشنطن بوست!**"، "**واشنطن بوست!**" "**واشنطن بوست!**".

كفى. لا داعي للفت أنظار المتمردين.

"الآن، عندي أمر، أمري الأول كرئيسة مكتب. كل يوم، نعم كل يوم بلا استثناء، ولمدة خمس دقائق في اليوم، ستخرجون إلى هنا للتأرجح. أنتن أيتها الأمهات سوف تضعن ملاعقكن وتخرجن للمرجحة. وأنتم أيها السائقون تأرجحوا لدى الخروج وعند الدخول. الجميع سيمارسون المرجحة وينسون المكان الذي هم فيه وينظرون إلى السماء متذكرين أنهم أحياء ولو في قلب هذه الفوضى. نعم نحن على قيد الحياة."

راحوا يحدقون في.

"هيا شباب! كان ذلك أمراً. قلت لطبّاختي الغداء: "أم محمد ووجدان أنتما تقومان أولاً. سوف آخذ قسطي اليومي من المرجحة معكما." قفزتْ المرأتان إلى الأرجوحة وضغطنا على سيقاننا سوية. وبعد أن نال كل من الفريق قسطة من المرجحة جرجرنا أنفسنا إلى العمل في الداخل. كنا، بسام وأنا، بحاجة لتعقب السياسيين المؤهلين لإعطائنا فكرة عن الأشخاص المرشحين ليصبحوا قادة البلاد الجدد. هذه كانت القصة الكبرى في أعقاب الانتخاب، مسألة السباق السياسي لاحتلال المقاعد الرئيسية في الحكومة الجديدة.

خرجنا سعياً للاهتداء إلى شخص نجري معه مقابلة في مقر قيادة الحزب الديمقراطي الكردستاني ببغداد. رد علينا رجل عند البوابة غير أنه أبلغنا بأنه كان يتعين علينا أن نعود بعد بضعة أيام لأن قادة الحزب كانوا مشغولين بعقد اجتماعات في كردستان. إنه مغلق، قام فلاح بتدوير السيارة وانطلق باتجاه المكتب. مررنا بمرآب واسع زعم فلاح أن الرجال يجلبون "صاحباتهم" (عشيقاتهم) إليه لتعليمهن قيادة السيارة. مع أنه كان مرآباً عائداً للقطاع العام، فإن عدداً من الانتهازيين كانوا قد أقاموا حاجزاً وراحوا يأخذون ما يوازي دولاراً واحداً ثمناً للدخول.

"هل نستطيع أن ندخل، يا فلاح؟"

نظر بسام إلي في المقعد الخلفي وسأل:

"هل أنت جادة؟"

"مئة بالمئة، إذا كان آمناً. أريد أن أسوق. هل تعلم كم من الوقت مضى منذ أن سقت سيارة للمرة الأخيرة؟"

علق فلاح: "اطمئني يا زعيمة! مسألة مضمونة" وهو ينعطف بالسيارة إلى داخل المرآب. دفع إلى الرجل عدداً من الدولارات وساق السيارة إلى وسط المرآب. كنت في ثيابي التنكرية العراقية، وبالتالي فإن من غير الوارد أن يكون أحد في الشارع قد لاحظ أني أمريكية. ترك فلاح المقود وقفز نازلاً، وأنا تسلقت وجلست في مقعد السائق. واصلنا الدوران مرة بعد أخرى وأنا نشوى بحريتي الجديدة. كنت رئيسة مكتب. لم أكن أستطيع أن أصدق. كنت مسؤولة عن هذه العملية. بقيت غارقة في بحر من الفرح إلى أن تذكرت قضية بالغة الأهمية: أنا الآن مسؤولة أيضاً عن الحفاظ على أرواح الجميع، مسؤولة عن بقائنا أصحاب أكبر قصة إخبارية في العالم. تنحيت بالسيارة جانباً وأعدت المفاتيح إلى فلاح. كان لدينا عمل نقوم به.

openkandil.com

قبل مغادرة كارل، كنت قد زرت الفلوجة مرة أخرى لرؤية المدينة وقد عاد إليها المارينز. كنت أعلم أنها ستكون سفرتي الأخيرة إلى خارج بغداد قبل رحيلي الدائم في آذار/مارس. كان سيتعين علي، لحظة مغادرة كارل، أن أركز اهتمامي على السباق السياسي الجاري على قدمٍ وساق لاحتلال المواقع في الحكومة المنتخبة حديثاً.

كانت الفلوجة هادئة، إلا أن المارينز كانوا مستمرين في خوض المعارك ضد جيوب مقاومة في المدينة. ومع أن القتال كان قد انتهى "رسمياً" في الأسبوع الثاني من شهر تشرين الثاني/نوفمبر، فإن المارينز ظلوا يتعرضون لإطلاق نيران أسلحة خفيفة وألغام طرق. قررت مرافقة دورية راجلة، لأخذ انطباع ميداني عن الدمار من جهة وعن لملمة الأمور من جهة ثانية. ما إن وصلنا مركز المدينة، حتى قفز المارينز من عرباتهم المدرعة على طريق ترابية ساكنة محاطة بأكوام الطوب المكسر، من المعادن الملتوية، ومن الأنقاض على الجانبين. في غضون دقائق، كانت الدورية التابعة للكتيبة الثالثة من اللواء الخامس، فرقة الأسلحة مطوقة بعشرات الأيدي التي راحت تشد أسلحتهم وتمتد إلى جيوبهم.

كانت أصوات صغيرة، لصبية صغار، تزقزق: "مستر، مستر!" مع تدافع كتلة متعاظمة مؤلفة من عشرين طفلاً لدى سعي كل منهم إلى إزاحة الآخر عن طريقه لالتماس قطعة من الشوكولاته. كان الأكبر سناً والأشطر يبادرون إلى اختطاف رضيع، ولو مستعيرينه من أحد الغرباء، وإبرازه، قائلين: "رضيع، رضيع، (بيبي، بيبي)" بالإنجليزية، في مسعى للحصول على كمية أكبر من الحلويات من الفرقة المختلطة المضادة للدروع.

نائب العريف ريتشارد سترستورم الذي كان لا يزال يحتفظ بشظية في ساقه ورثها من معركة في 12 كانون الأول/ ديسمبر مع المتمردين، تجاوز الأطفال

ومـر بعـدد من البـيـوت الخـربة المعلمـة بإشـارة X للدلالـة على أنهـا مطهـرة من الأسلحة. قال: "عجيب المرور ببيت أحرقناه ورؤية عائلة فيه الآن."

وعلق نائب العريف مايكل كاتالانو مشيراً إلى مبنى من طبقتين عبر بركة كبيرة متشكلة من بقايا مياه الأمطار، مبنى اسودت جوانبه من الدخان، قائلاً: "انظري! أحد جنود المارينز قتل هناك."

لم تكن السهولة النسبية التي مشينا بها عبر الفلوجة أقل إثارة للأسى وسحقاً للأعصاب من انفجارات قذائف المدافع المفاجئة خلال المعركة. تمثل التغيير الأكبر، بالنسبة إلى كثرين، بوجود مدنيين. فمع قيام قوات المشاة باقتحام المدنية بصخب في تشرين الثاني/نوفمبر 2004، كانت أكثرية الأهالي قد هربت امتثالاً للتحذيرات. وبعد ثلاثة أشهر، كان مئات الآلاف قد تزاحموا عائدين، غير أنه لم يكن واضحاً كم عدد الذين كانوا قد ظلوا في بيوتهم. كانت المدنية ركاماً.

كثيرون من العائدين وضعوا إشارات على بيوتهم لتمكين قوات الأمن من معرفة أنهم في الداخل. لوحات كرتونية بدائية منقوشة بلغة مستعارة كانت معلقة على بوابات خلعتها القوات المتقدمة. حملت إحداها عبارة "عائلة في الداخل"، وأخرى "هنا عائلة". كذلك عمد كثير من المقيمين إلى رفع بيارق بيضاء مصنوعة في قطع شراشف، قمصان، أو مريلات مطابخ.

حين بدأت قوات المارينز تسيير الدوريات في الشوارع، كان الأهالي ميالين إلى العزوف، نادري الابتسام أو التلويح بالأيدي. شكل الأطفال طلائع المتواصلين مع المارينز، وما عن أدركوا أن جنود المارينز قد يعطونهم كميات من الحلوى، الكرات، والألعاب، حتى صاروا يحتشدون حول الدوريات. مكرراً عبارة درج على استخدامها للحصول على الحلوى كان أحد الصبية يهتف: "صدام سيئ، جورج بوش جيد!". أسلوب بدا ناجحاً.

أدمنتُ فتاة صغيرة أخرى تعقب المارينز خلال فترة دوريتهم التي كانت تدوم ساعة، متوقفة من وقت لآخر لتذرف دموع التماسيح إذا لم تحصل على قطعة "شوكولاته يا مسترا!" حاولتُ نشل ما في جيبي. قنصت يدها. وبَّختها: "**حرام**". ابتسمت ببساطة ولحقت بأحد البحارة قائلة وهي تنظر إلى الأعلى "شوكولاته مسترا!"

رجل يدعى حاتم جاسم حسين أوقف المارينز في أثناء الدورية ودلهم على كومة من أغلفة قذائف المدفعية الفارغة في حقل موحل مملوء بالقمامة. أفاد بأنه سعيد بقدوم الأمريكيين. أضاف: "نحن جميعاً، أعني الجميع، سعداء جداً"، لافاً سترته الجلدية حول **دشداشته** الرمادية. تابع يقول: "انفرجنا. الأمريكيون يحمموننا. نشعر بالأمن." غير أنه التمس مزيداً من المساعدة لإعادة بناء بيته الذي كان قد احترق في أثناء الهجوم. "ماذا عن إصلاح وضع المدينة؟ عازمون نحن على إعادة إعمار البلدة." أقر المارينز بأنهم كانوا متوفرين على نافذة صغيرة تمكن أهالي الفلوجة من رؤية أن المساعدات اللازمة لإعادة الإعمار كانت على الطريق، وإلا فإنهم قد يخاطرون في فقدان التأييد المتردد والهزيل أساساً.

كارل وأنتوني غادرا العراق بعد أسبوع من عودتي من الفلوجة. كنت وحدي في المكتب إلى أن وصل كارلايل مورفي من واشنطن منتصف شباط/فبراير. في أيار/مايو كنت قد اشتريت علبة لصاقات لسفرتي، فيها 172 قطعة ـ لصاقة. نعم مئة واثنتان وسبعون. تذكرت تساؤلي آنذاك عما ستكون عليه فترة 172 يوماً في العراق. **خير، لن أعرف أبداً**، قلت لنفسي، متأكدة من أنني سأكون في الوطن قبل نفاد ما في علبتي بزمن طويل. وكلما وافقت على البقاء شهراً بعد آخر، كنت أعاين علبة اللصاقات تلك إلى أن اكتشفت يوماً، أنني سحبت الأخيرة في النهاية. حين أصبحت رئيسة مكتب كانت العلبة قد فرغت من أشهر، ورغم فرط انشغالي نتيجة اضطلاعي بدوري الجديد كمديرة مكتب موقتة، كنت أيضاً

أجدني متبطلة. ثمة كانت مبالغة في التوسع، في "النطوطة"، وفي إضاعة الهدف. ذات ليلة، وحدي في المكتب بعد سفر أنتوني وكارل، اقتنعت بأن المتمردين كانوا سيأتون لاختطافي، ولن يتمكن أحد في واشنطن من اكتشاف حقيقة ما قد حدث. حاولت أن أنام، انتقلت إلى غرفة كارل الفارغة، ثم إلى غرفة انتوني المهجورة، عائدة بعد ذلك إلى غرفتي. في حالة الحرمان من النوم هذه، كنت أقنع نفسي بأنني قادرة على تضليل المتمردين بالتنقل بين الغرف.

شكل راجيف وكارل نموذجين ممتازين. كلاهما كانا يلوذان بهذه البداهة أو البراعة الفطرية لمراوغة صحفية المكتب ولوجستياته. تمنيت أن أتمكن من الارتقاء إلى ذلك المستوى. ثمة كانت كمية غير قابلة للتصديق من العمل والمسؤولية. ظل الأمن هاجسنا الأول، بالنسبة إلى المراسلين الأمريكيين وفيما يخص جهاز العاملين على حد سواء. ومن ثم القصة. وفي مكان ما في الوسط، بين بين، مسألة صحة الجميع ورخائهم. كانت أم محمد تريدنا أن نستخدم "ولدها" عامل تنظيفات. كانت بحاجة إلى عملية جراحية بيدها. طلبت قرضاً للذهاب إلى الأردن لزيارة زوجها الذي كان في المستشفى. أما أم حسين فطلبت زيادة في الأجرة. والد الأصلع كان يعاني من مرض نادر في العين، ولم يكن أي طبيب عراقي مستعداً لإجراء عملية له. توسل الأصلع راجياً: "هل تستطيعون عرض أبي على بعض الأطباء الأمريكيين؟". كان خالد بحاجة إلى بطاقة اعتماد ليسدد أجور المحامي الكندي الذي كان يساعده على الهجرة. توقف غزوان عن المجيء إلى العمل لمدة أسبوع بعد أن اختُطف صهره. كان خائفاً من أن يتعقبه المتمردون أيضاً فيدلهم على مكاننا. ظل المولد يتعطل. تجادل فلاح مع أحد العاملين العراقيين في منزل مجلة **تايم** حول الجهة التي سددت قيمة المحروقات ذلك الأسبوع. انفجر المولد، وبعد يومين من تولي منصب رئاسة المكتب تعين علي أن أقود وفداً من عاملينا إلى **التايم** لتسوية المشكلة. جلبت معي كمية من المعجنات، وزعتها. أصدقاء؟ تصافحوا بشيء من التحفظ. أصدقاء بالتأكيد.

ما كنا لنطيق أن يكون جيراننا أعداء لنا. رغم إجراءاتنا الأمنية المكثفة، ظل الحراس يتركون باب المطبخ مفتوحاً، موفرين لكائن من كان فرصة الدخول والخروج. طلبت من عمر أن يعلق لافتة تحمل باللغتين الإنجليزية والعربية عبارة "كل من يترك هذا الباب مفتوحاً سيغرَّم بـ 5 دولارات."

على نار حقيقية انتظرت وصول كارلايل مورفي حاملاً معه السيولة النقدية الضرورية لتسديد الأجور، ثمن المازوت، حقوق المتعاقد المكلف ببناء كوة الحراسة على السطح، وتكاليف تصفية الحساب مع الرجل الذي دفعنا له كي لا يقتلنا. كنت قد اقترضت من فلاح حتى لشراء مواد البقالة. كتبت رسالة إلكترونية لصديقتي جسيكا هناك في واشنطن بدأتها: "مرحبا! نحن **الواشنطن بوست!**" لم أستطع أن أفهم كيف كنا نتدبر أمورنا. تعين علي أيضاً أن أطرد مترجمة جديدة دأبنا على اختبارها لأكثر من شهر. كارل وأنتوني نصحا أيضاً بفصلها. لم يُقْدِم أي منهما على فصلها. استدعيت المترجمة إلى غرفتي وأجلستها أمامي وشرحت لها بألطف أسلوب ممكن أن لغتها الإنجليزية لم تكن مناسبة ووجودها في المكتب قد أصبح معرقلاً للعمل بعض الشيء. كانت قد أمرت الحراس بجلي أطباقهم في الليل. يا لها من فكرة رائعة! ـ ألم يسبق لي أن تشاجرت مع أخي بالذات حول هذا الموضوع قبل سنوات؟ ـ غير أنني قلت لها "لا يجوز أمنياً أن ينشغلوا بالجلي عن الحراسة." عرضت عليها تسديد نفقات إتباعها لدورة لغوية في الأردن. "حسّني لغتك الإنجليزية، ثم عودي فقد يقوم رئيس المكتب اللاحق بتشغيلك." قلت لها. كنت ودوداً. تعانقنا. بكت، شكرتني، طبعت قبلة على وجنتي. في صباح اليوم التالي جاءت لمواصلة العمل. لم تمكّنها لغتها الإنجليزية المرعبة بضعفها من فهم أنني كنت قد فصلتُها من العمل.

رفض فلاح مناقشة رحيلي الوشيك. بعينين مغرورقتين بالدمع نظر إلي بعد قيامي بإثارة الموضوع للمرة الثانية، وقال: "لا أريد أن أعرف موعد مغادرتك. يكفي أن آتي إلى المكتب فلا أجدك فيه."

obeikandl.com

كان التفكير بترك هؤلاء الناس، هذا المكان الذي كنت قد أصبحت أحبه ولو بقيت أكره العنف الذي كان يزخر به، يعذبني. ومع ذلك استطعت أن أخرج. استطعت أن أرحل. لم أنس ذلك قط. حتى حين كنت أغرق في بحار من الخوف والاكتئاب، حبيسة القفص مقطوعة النفس، كنت مدركة أنني لم أكن في العراق إلا باختياري.

الأسبوع الأخير في العراق كان لطخة مزدحمة بالوداعات والحفلات. بحفل عشاء ليل جمعة، زاخر بجميع مأكولات العاملين المفضلة ـ المعكرونة مع الجبنة، البطاطا المهروسة، العجة المحشوة، الحلويات المنوعة. أطباق متنافرة، ولكنها هي التي كان المترجمون قد اختاروها فلم أكن مستعدة لحرمانهم منها. كانت معي تسع حقائب ملأى بهدايا الميلاد والوداع من العاملين؛ بملابس صيفية، شتوية، وربيعية تراكمت خلال تسعة أشهر؛ معدات ميدانية موروثة عن الفلوجة. استأجرنا أحدهم لنقل الحقائب إلى الأردن بالسيارة؛ كان من المفروض ألا أصطحبها. الأول من آذار/مارس. الأول من آذار/مارس. نعم الأول من آذار/مارس. لم يسبق لي أن تجمدت عند أي تاريخ كهذا منذ أن قمت بعدٍّ الأيام تنازلياً قبل حصولي على إجازة السوق وأنا في المرحلة الثانوية. كنت سأغادر في الأول من آذار/مارس.

مررت بفترة عصيبة مثقلة بالمقابلات مع أي كان في الحكومة العراقية لملء قصتين أخيرتين أردت كتابتهما. كنت محظوظة بعمر وبسام اللذين ظلا يتصلان، يلحان، يتوسلان، غير أننا لم نصل إلى شيء. لم أكن أريد أن أمضي أيامي القليلة الأخيرة محشورة في المكتب، غير أنني كنت محشورة حقاً، غير قادرة على الخروج ومقابلة أحد. وبعد شهرين، حين جاء عمر إلى الولايات المتحدة، اكتشفت السبب. خدمة لأحد موظفي وزارة الخارجية في المنطقة الخضراء، وافقت على إلقاء محاضرة غير رسمية أمام عدد من الصحفيين العراقيين عن أسلوب **الواشنطن بوست** في تغطية قصة العراق. بدت تلك طريقة موفقة لمغادرة

العراق، إعادة شيء ذي شان إلى صحافة عراقية ناشئة. رافقني كل من أبي سيف وكارلايل مورفي إلى المركز الدولي للإعلام. أبلغت الصحفيين أن النقاش لم يكن للنشر، بمعنى أنه لم يكن سوى حوار بين زملاء مهنة واحدة. تحدثت عن ضرورة التحلي بالموضوعية الكفيلة بإكساب الصحفيين ثقة قادة الحكومة من جهة والقراء من جهة ثانية.

كانت امرأة غير معروفة لدى أي منا، قيل أنها صحفية تمثل جريدة **بغداد اليوم**، جالسة في مؤخرة الغرفة، غير مشاركة في النقاش ولكن عاكفة على تسجيل بعض الملاحظات. في اليوم التالي كنتُ موضوع مادة صفحة الجريدة الأولى. المادة نفسها لم تكن مدمِّرة بالنسبة إلى **البوست**. نقلت عني أن **البوست** "ليس لها أصدقاء ولا أعداء." كنت أحاول تسليط الضوء على مدى أهمية الالتزام بالحياد مع كل من الجيش الأمريكي والحكومة العراقية. فالصحافة العراقية المحررة حديثاً كانت لا تزال في طور تعلم فن الانفصال عن مشاعرهم القومية المشبعة بالاعتزاز لدى قيامهم بتغطية أخبار حكومتهم الجديدة على نحوٍ موضوعي. في نهاية المادة، كتبت المراسلة تقول إنني قادرة على الحصول على الاعتراف والإذن المطلوبين للعمل في العراق غير أن الصحفيين العراقيين لم يكونوا يعاملون بالمثل في أمريكا. لم يكن هذا صحيحاً، بالطبع، غير أن المعنى المضمر تمثل بالزعم بأنني كنت قادرة على التنكر في العراق والقيام بأعمال تجسسية. "أنت ذات شهرة خطرة!" قال عمر بعد إطلاعي على المقالة. غضبت من المراسلة لأنها لم تخبرني بأنها كانت تريد أن تكتب مقالة، لأنها لم تدقق في وقائع النقاش معي، ولأنها لم تفهم أن عبارة "ليس للنشر" **كانت تعني** "ليس للنشر." كنت أعلم أنها كانت غلطة صحفية مبتدئة، شخص يحاول التعرف على معنى صحافة حرة. غير أنها كانت قادرة أيضاً على أن تعرضني للقتل.

في اليوم التالي بادر مخبرنا المتمرد، ذلك الذي كنا ندفع له كي لا يقتلنا، إلى سؤال عمر عما إذا كانت تلك الشابة التي كان يعرفها من المكتب ـ أي أنا ـ

تحمل اسم جاكي سبنر. كان المتمردون مستعدين لدفع 5000 دولار لأي شخص يدلهم على مكان إقامتي. بحصولهم على تلك المعلومة كانوا يستطيعون محاولة اختطافي. لم يخبرني عمر بالأمر في ذلك الوقت لأنه هو ورئيس الأمن مهند، كانا يعرفان أنني كنت شديدة الانزعاج من إقحام اسمي في افتتاحية صحفية ذات علاقة تحالفية برئيس الوزراء إياد علاوي. تمثل جوهر حديثي مع الصحفيين العراقيين بتأكيد حقيقة عدم كون مراسلي **البوست** منحازين إلى أي طرف من الأطراف.

أكد عمر للمخبر: "لا، لا توجد هنا واحدة تحمل اسم جاكي سبنر. ليس ذلك هو اسم الشابة الموجودة معنا."

وانطلاقاً من ذلك قام عمر بمنع المترجمين من تلبية طلباتي المتعلقة بإجراء مقابلات خارج المكتب خلال الأيام الباقية لي في العراق. كان الجميع شديدي الحرص على إبقائي في المكتب آملين ألا أتعرض لأي خطر.

قلت لعمر حين اعترف لاحقاً بالأسباب التي حالت دون إجراء المقابلات التي كنت قد طلبتها: "لم يكن من حقك أن تكتم ذلك عني!"

"كنا نحميك."

"إياك أن تفعل ذلك مرة أخرى. أنا صاحبة حق اتخاذ قراراتي بشأن السلامة. وكان من حق واشنطن أن تعلم بأن رأسي صار ذا ثمن." كلماتي كانت قاسية. مع عدم رغبتي في جرح مشاعر عمر، فقد تعين علي أن أثبت أنني كنت الرئيسة، لا الأخت أو الصديقة أو الزوج. كنت أنا رئيسة المكتب، وإذا كان جهاز العاملين متورطاً في حجب المعلومات عني، ولو من منطلق الحرص وحسن النية، فقد كان من شأن الأمر أن يشكل نوعاً من المساومة على أمننا. هل ثمة أشياء أخرى كانوا قد حجبوها عني؟ بقيت في العراق لأنني كنت أعرف المخاطر. أو

كنت أعتقد ذلك. إن معرفة جميع المخاطر، بلا استثناء، كانت مسألة بالغة الحيوية.

قررت أن أقيم حفلاً للعاملين قبل الرحيل، مناسبة توحدهم وتلهيهم عن أعمال العنف المتواصلة، التي كانت قد توقفت قبيل الانتخاب، في أثنائها، وبعيدها، ثم ما لبثت أن تصاعدت ثانية. قام عمر الثاني باستئجار مغني شعبي عراقي؛ مغني حقيقي لا مجرد فارس أسطوانات وأشرطة تسجيل. أردت أن أقيم وليمة حقيقية لجهاز العاملين. ثمة مخبرون جاؤوا من سائر أرجاء العراق. أقام المغني منبره في غرفة الجلوس. وأزاح الصوفا والكراسي لإعداد حلبة مناسبة للرقص. عكف أبو حيدر على إعداد أطباق عراقية تقليدية: **دولما**، أرز، وكباب. نشرنا كميات كبيرة من عبوات المشروبات الغازية على مائدة غرفة الطعام، وراح العاملون يحتسون البيرة والمشروبات الغازية مواكبين المغني المناغي بالغربية.

كانت هذه هدية وداعي لنفسي أنا بمقدار ما كانت لجهاز العاملين. نادراً ما توفرت لعراقيينا أي فرصة للاحتفال، للغناء، للرقص، لاحتساء البيره المهربة، منذ الحرب. أحاطت حلقة الراقصين بمخبرنا الفلوجي، الذي كان جاثماً في الوسط، حاملاً سيف رئيس المكتب، راكلاً الأرض في دبكة عراقية. راح السائقون يتبرعون للمغني قاذفينه بأوراق نقدية دولارية. عدداً من المرات، هرعت إلى الخارج بعصبية لمعرفة ما إذا ضجيج الموسيقا مسموعاً. كانت الجلبة في الداخل شديدة إلى درجة أن أحداً لم يكن يستطيع أن يتكلم. كنت واثقة من أننا كنا نبعث برسالة صاخبة إلى المتمردين. "هيا تعالوا! ثمة عراقيون وأمريكيون سعداء يتحدون إرهابكم! مرحباً! نحن هنا، نتحداكم!"

أخيراً، ملتزمة بموعد خروج محدد في الأول من آذار/مارس، مشيت إلى خارج باب المكتب للمرة الأخيرة. كنت مهدودة من تعب السهر الطويل مع بسام وعمر في الليلة السابقة حيث عكفنا على اعتصار الدقائق الأخيرة لوجودنا معاً

في المكتب. أصر نصير الصغير، هو الآخر، أن يسهر معنا. جلسنا على أرض غرفة الجلوس في الظلام مطلقين النشيد الوطني العراقي. أصغيت إلى الشباب وهم ينشدوه، وقلبي ينبض مع الإيقاع، وقلبي ينبض من أجل بلد كان قد تسلل إليه ولم يعد يقبل الخروج منه.

رافقني عمر إلى المطار مع أني رجوته ألا يفعل، توسلت إليه ألا يعرّض نفسه لمخاطر الطريق لوداعي. إلا أنه لم يكن مستعداً لأن يسمع. أنزل ستائره الداكنة وجلس في المقعد الأمامي. لم يتكلم أحد. وقفنا في رتل أمام نقطة التفتيش العسكرية وانتظرنا بصمت زحف السيارات التي تتقدمنا باتجاه الكلاب المتخصصة بشم المتفجرات والقنابل. نظرت إلى ساعتي. لم يبق لي سوى ساعة للصعود إلى الطائرة، ومازلت ملزمة بتسليم حقائبي للتفتيش وركوب الحافلة.

"سأتخلف عن موعد إقلاع طائرتي."

"لا يزال هناك متسع من الوقت" قال عمر مطمئناً.

خمس عشرة دقيقة أخرى طارت. كان متعذراً علي أن أقوم بهذه الرحلة مرة أخرى، أن أعود إلى المكتب لعقد جولة جديدة من مجاملات الوداع، لسماع جوقة **حبيبتي** - أقوى عبارات التكريم لأي امرأة.

"سأمشي!"

مددت يدي إلى المقعد الأمامي واختطفت جهاز اللاسلكي لإخبار مهند الذي كان في سيارة المرافقة وراءنا. قلت له:

"أنا ماشية، يا مهند! لا أستطيع الانتظار في هذا الرتل أكثر مما فعلت."

اعترض عمر.

فتحت بابي والتقطت حقيبة ظهري. تبعني مهند مصطحباً مسدسه.

قلت: "هيا نمش!" آمرة ساقي بعبور هذه المسافة الأخيرة من الطريق، مارة بالسيارة المنتظرة، بالانتحاريين المحتملين، بالجنود، بالرعاة، بالنساء المرافقات أولادهن إلى المدرسة، بالعجائز المقايضات على الخبز في مشهد ممزق سبق له أن ابتلع لمى قبل أن تهتدي إلى وطنها. أمامي كانت ثمة طائرة تتأهب لإعادتي إلى الولايات المتحدة، إلى حياتي، إلى توأمتي، إلى جميع من أحبهم وكنت قد غادرتهم إلى العراق. عزلت نفسي عن الأصوات المحيطة بي، زعيق السيارات التي نفد صبرها، صيحات الجنود الذين يأمرون السائقين برفع الأغطية، دبيب الصهاريج المارة دحرجة. خدرني شعور بالارتياح المشوب بالحزن فيما كنت أثير الغبار بصندلي وطرفا غطاء رأسي يرفرفان مع النسيم مثل علم يخفق. لم أعاود النظر إلى الخلف باتجاه عمر المنتظر في السيارة ورائي، متطلعة بشوق إلى الحرية التي كانت تنتظرني في الطرف الآخر من الرحلة. هل كنت في بداية النهاية حقاً؟! كنت متأكدة فقط من ضرورة مواصلتي المشي.

في الأسابيع التي أعقبت عودة جاكي من العراق، توقفت عن توقع عودة الحياة إلى طبيعتها. كنت أعلم أنها لن تفعل قط، أقله، خلال فترة طويلة من الزمن. فبعد أسبوعين اثنين من وصولها إلى الولايات المتحدة، رافقتني إلى سان فرانسسكو، حيث شاركت في إحدى الندوات البحثية. كنت أتطلع بلهفة إلى رحلتنا منذ أشهر، متذكرة عطلاتنا الأسبوعية الطويلة المشتركة عندما كانت في معهد الدراسات العليا ببيركلي. خصوصاً، كنت أتطلع إلى قضاء بعض الوقت معها وحدنا دون الاضطرار إلى تقاسمها مع أفراد عائلتي أو أصدقائها. بعد عشرة أشهر طويلة، كانت لدينا أشياء كثيرة يتعين علينا أن نفعلها لنلحق بركب الزمن. أما وقت باتت آمنة دونما حاجة

إلى تظاهري بأن كل شيء على ما يرام، بأنني بخير، فقد أصبحت قادرة على إبلاغها كم كنت خائفة، كم كنت مقتنعة يقيناً بأنها كانت ستموت. يا لها من رغبة أنانية! غير أنني كنت شديدة الرغبة في نفض غبار الخوف والتحرك إلى الأمام. كان بوسعنا أن نتقدم معاً.

لم تكن الرحلة موفقة. خلال وجبات عشائنا المسائية كانت أختي تكثر من الشرب إلى حد الإفراط، متحدثة بغضب وصوت مرتفع عن البُلهاء من حولنا. كنت أحاول إسكاتها ولكنها كانت تبادر إلى تعنيفي أنا أيضاً. حين قمت بلفت نظرها إلى يديها المرتجفتين الملتفتين حول كأسها الثالثة من الماء في عشر دقائق، ابتعدت قليلاً عن المائدة، عني أنا. وفي غرفة الفندق التي تقاسمناها، رفضت النوم في السرير وفضلت أن تنام في الغرفة الصغيرة الملحقة. دخلت عالم النوم على وقع نقرها للكومبيوتر، مصدرة رسائل إلكترونية إلى "الشباب هناك في الوطن." الوطن. العراق.

ومع توالي الأسابيع والأشهر، بدأت أدرك بأن الحرب كانت قد أخذت منا ما هو أكثر من كل ما كان العراق قد قدمه إلى أختي، قدمه إلينا جميعاً. تذكرت ليلة استقبالنا لها في مطار دالاس، كيف كنا قد وصلنا مبكرين كثيراً لرغبتنا في أن نكون هناك لحظة خروجها من الجمارك. أخيراً ظهرت، سمراء البشرة من شمس العراق، شديدة الهزال من العيش على الأرز. والخوف. من مرضها الأخير. كانت ترتدي ملابس سوداء، وغطاء رأسها مدسوس في إحدى الحقائب التسع التي كانت تدفعها. ثرثرنا الطريق كله إلى السيارة، غير أننا ما لبثنا، بعد الدقائق الأولى من الحوار المحموم، أن غرقنا في بحر من الصمت. أطال آيدان النظر باستغراب إلى المرأة الجالسة بجانبها، المرأة التي كانت تحدق في البعيد عبر النافذة، ووجهها مضاء بأنوار مدينة فيرجينيا الشمالية. لَكَزْتُ ابني:

"قل للخالة جاكي إنك تحبها."

"أحبك." قال مردداً كالببغاء.

"قل لها شكراً على عودتك إلينا."

"عودتك" قال ماداً يده الصغيرة نحوها في الظلام.

يدي أنا بالذات تخترق الظلمة، تمتد، مازالت تتطاول.

obeikandl.com